

The Palestinian Catastrophe (An-Nakba) in the Novel, *zamn alḳayūl albayḍā'* [*The Time of the White Horses*] by 'Ibrāhīm Naṣrallah: Imagination and Historical Awareness

Rami Abu Shehab

This study aims to demonstrate the concept of historical narration in the novel, *zamn alḳayūl albayḍā'* [*The Time of the White Horses*] by Ibrahim Nasrallah. The study transcends the conventional perspective towards Nasrallah's novel that only focuses on verifying events and, instead, promotes a collective spirit buried within an imagined text and that seeks to achieve historical awareness of the event. This results in ensuring the continuity and contemplation of a violent event, the Palestinian Catastrophe, that is engraved in the Palestinian consciousness.

The study examines the dialectical relationship between the historical event and the imaginary narrative using specific frameworks. These frameworks include Hegel's concept of the spirit of history, as well as György Lukács' and Paul Ricoeur's theories, particularly those about historical narrative.

Keywords: Nakba - Memory - Novel - Palestine - Ibrahim Nasrallah

النكبة في رواية "زمن الخيول البيضاء" إبراهيم نصر الله: المتخيل والوعي التاريخي

رامي نزيه أبو شراب

محاضر، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة قطر، قطر

الملخص

تنطلق هذه الدراسة من محورية النكبة بوصفها حدثاً تاريخياً أنتج ما يمكن أن نعتنه بالصدمة كما شاعت في الدراسات الثقافية التي خصصت مجالاً نقدياً واسعاً للبحث في تداعيات الأحداث الكبرى، والمآسي على الفرد؛ والشعوب، مما يتطلب قراءة تأملية، وناقدة للحدث، بالتوازي مع منظور آخر لتأمله فكرياً وفلسفياً وفتياً. تهدف هذه الدراسة إلى تمثيل مفهوم السرد التاريخي في رواية "زمن الخيول البيضاء" للروائي إبراهيم نصر الله انطلاقاً من فرضية الفعل والأثر لكل من التجليات السردية المتخيلة والوظائف التاريخية التي تنهض بها الرواية، مع تأكيد تجاوز المنظور التقليدي القائم على التثبيت من الأحداث، وانعكاسها في العمل إلى ما هو أعمق من ذلك، ونعني الروح الجمعية القائمة في نص متخيل يسعى إلى تحقيق وعي تاريخي من أجل تمكين الاستمرارية والامتداد كما التأمل لحدث عنيف كمن في الذاكرة الفلسطينية القائمة على محورية النكبة؛ ومن هنا، فإننا نقرأ جدلية العلاقة بين الحدث التاريخي، والسرد المتخيل ضمن مسارات محددة، ندين بها لكل من هيكل ومفهومه لروح التاريخ، بالتجاور مع تنظيرات لو كاش وريكور، ولاسيما فيما يتعلق بالسرد التاريخي.

مقدمة

تنطلق هذه الدراسة من إشكالية تراجع تمثيل Representation الوجود الفلسطيني خطابياً، ولا سيما مع انتكاس المستوى الفيزيائي، الذي غدا قائماً في قطاعات معزولة؛ ما أضعف عرى العلاقات العضوية والروحية بين أبناء الشعب الفلسطيني الواحد؛ نظراً لاختلاف المكان، وتعدده، كما تباعده، في حين أن المسألة الفلسطينية ما برحت تدخل في طور جديد بعد تقادم الزمن الذي غيب الأجيال (الأسلاف - الآباء)، التي شهدت تفاصيلها مما حال دون إدراك الأجيال الجديدة لهذا الحدث المركزي كونها لم تعاشه، إنما أدركته عبر اللغة، والمرويات. وهذا تزامن مع تمدد قيم العولمة التي أوهنت حالة التمثيل تبعاً لقدرتها على تذويب السرديات التاريخية، وتفكيك الهويات الجمعية، ونفيها من الوعي التاريخي للروح الجمعية الفلسطينية التي تآكلت بفعل الاحتلال، وما تمخض عنه من تصفية جسدية، وارتحال، وتهجير، وتشتيت، وهذا تزامن مع غياب التاريخ الفلسطيني الذي يعدّ بالنسبة إلى الغرب لا مرثياً، أو مخفياً مقابل نزعة خطابية تراجيدية عالية الصوت يتقنها الخطاب الصهيوني الذي يهيمن على الذاكرة الغربية كما يشير رشيد الخالدي⁽¹⁾، أضف إلى ما سبق، التصفية الثقافية اللغوية التي مارستها السرديات الصهيونية التي سعت جاهدة، وما تزال تسعى لإفناء الوجود الفلسطيني عبر تبديد خصائصه المتصلة بمفهوم الأمة، الذي ينهض معرفياً على توفر وعي جمعي يمتلك تاريخاً، وبنى ثقافية واجتماعية واقتصادية وثقافية.

انطلاقاً من المسوغات السابقة، فإن الكتابة تعدّ إحدى وسائل النموذج المقاوم، ولا سيما في ظل غياب مشروع وطني للتحرر على أرض الواقع، ومن هنا، تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تعدّ محاولة لتوجيه النظر إلى أهمية الخطابات السردية باعتبارها منتجات متخيلة غير منفكة عن التاريخ؛ إذ تعيد إنتاج الثاني، ولكن في مجال حيوي قابل للاستمرار، ومقاوم للفناء.

أولاً - التردد... الروح الجمعية

يكتسب المتخيل التاريخي في المفاهيم السردية - بحسب جورج لوكاش، وغيره

من منظري السرد - عدداً من الإشارات والوظائف التي تهدف إلى الإفادة من المتخيل التاريخي بهدف تحقيق مقولات تتعالق مع الهوية، والقومية، والوجود الجمعي؛ أي " أن يعيد في لوحة متناسقة صادقة تركيب الماضي المتناثر شظايا في كل مكان" (2). وهذا ما يتجسد في البحث عن الروح التاريخية لأمة ما، وكما يلاحظ، فإن النكبة قد أحدثت تشويهاً أو خللاً في مسيرة التطور الطبيعي للأمم المستعمرة نزولاً عند آراء دارسي الخطاب ما بعد الكولونيالي، ولا سيما "بيل أشكروفت" الذي تساءل عن دور التاريخ في تمثيل المستعمرين لذواتهم من خلال الأدب الذي يشكل أفقاً جديداً لبناء الهوية، ولكن عبر طرح عدد من الأسئلة التي تتعلق بتعريف الوطن، والمنظور المستخدم... ومن ذلك الارتداد نحو الماضي بهدف تأمل فترة الهيمنة الكولونيالية التي صاغت تكوينه الحالي (3).

إن الاضطلاع بالكتابة ضمن المستوى المتخيل، يأتي محاولة للإفادة من التاريخ كي يعمل باعتباره نسقاً مضاداً لمروية مقابلة. فالسرديات تضطلع بوظائف متعددة؛ فهي تُحيل إلى تكوين حكايات بامتياز، ينهض على تقديم التجليات الفنية لعالم ابتكر من لدن صانعه "الروائي" من جهة، كما يسعى إلى تمثيل الكوامن التاريخية بوصفها خطاباً، يقاوم الانحراف التاريخي الذي تسبب به حدث طارئ كي يعيد موضعه من جهة ثانية، بالإضافة إلى تقييمه من جهة ثالثة، فكما هو معلوم، فإن الحدث الطارئ "الاحتلال" قد أحدث تشويهاً في جسد المتخيل الروحي الجمعي، فضلاً عن تزويره للحقائق، وطمس معالم المروية الحقيقية عبر توجيه الوعي الإنساني العالمي إلى قيم زائفة، ومن هنا، تسعى السرديات إلى استعادة الحقائق، لا باعتبارها تاريخاً، أو توثيقاً فحسب، إنما بوصفه روحاً تسكن الوعي الجمعي أيضاً.

إن أفعال الانفكاك عن الوعي أمر جدلي؛ فالتاريخ يبقى - في معظم الأحيان - أسير المقررات المدرسية التي تسعى لأن تصوغ التاريخ تبعاً لوجهة نظر معينة؛ ولهذا يعدّها البعض أكثر أهمية من الكتب التي غالباً ما يطولها التشكيك (4)، غير أن الأدب يتفوق، أو يتغايّر عبر استلهامه التاريخ، وتجسيده وعياً مستمراً، لا يُفنى، أو من الصعب تبديده، فهو يتسرب إلى الوعي ليصبح جزءاً من سردية حيوية، وهذا لن يتحقق إلا بالحكي، والسرد، أو الفن عامة، ومن هنا، تتحدد الفرضية البحثية التي تنهض على مدى تحقق

الوعي التاريخي الجمعي في رواية " زمن الخيول البيضاء " للروائي الفلسطيني إبراهيم نصر الله ، مع الاستئناس ببعض الروايات الأخرى التي نتجت بفعل إدراك كتاب الرواية للوظيفة السردية العابرة للزمن . فالمتخيل تجسيد لقيمة وجود الروح الفلسطينية الجمعية التي ينبغي أن تبقى في الزمن ، أو تمتد فيه ؛ ولهذا يحرص السرد الفلسطيني على تفعيل خطابات النكبة بهدف استعادة هذا النسق نتيجة الخشية من غياب هذا الحدث المهم عن الوعي بمختراته التاريخية والاجتماعية والفنية والاقتصادية . ومن هنا ، تسعى هذه الدراسة للإجابة عن سؤالها المركزي الذي يتحدد بمدى تحقق بنية حكاية قادرة على استلها التاريخ ، وتوظيفه في الوعي الجمعي لتكوين سردية تاريخية تكمن في الذاكرة ؛ بحيث تشكل فعلاً خطابياً مضاداً للمرويات الصهيونية التي تمركزت على مقولة " أرض بلا شعب " نتاج الحركة الصهيونية ، أو بما يعرف بالصهيونية الشاملة المهودة التي روجت لفكرة أن العالم يمثل المنفى ، واليهود شعب عضوي لا بد أن يُنقل من المنفى إلى فلسطين " أرض الميعاد " ؛ ومن ثم تبع ذلك إطلاق المقولة الشهيرة التي تهدف إلى تكريس فكرة الجمع بين الأرض المقدسة (فلسطين) والشعب المقدس (اليهود) ، وعلى الشعب المقدس أن يعود إلى الأرض المقدسة التي تخلو من الشعب⁽⁵⁾ .

ثانياً- السرد بيه المتخيل والتاريخ : الإشكالية وجدلية الوجود

للتاريخ تصورات معرفية محددة تبعاً للوظيفة التي يؤديها ، فالتاريخ شأنه شأن أي حقل معرفي آخر ، يحظى بقواعد معرفية ، ومنهجيات محددة ، كونه علماً مستقلاً ؛ مادته الأساسية تتحدد بالماضي ، الذي يشكل " الحقل الذي تناوله هذه المعرفة التاريخية عبر نقل " وقائعه " في حيز الزمان والمكان " ⁽⁶⁾ . وتتعدد مناهج دراسة التاريخ ، ومقارباته ، بيد أن الذي يعيننا في هذا السياق ، تلك المقاربة التي تستجيب لأطروحتنا من حيث النظر إلى التاريخ لا بوصفه نسقاً يتقصى الأحداث من منطلق التحقق من الثبوتية ، أو المقارنة بين المتخيل من جهة ، والمرجعية التاريخية من جهة أخرى ، إنما عبر النظر إلى روح التاريخ التي تتجلى في تقاطعها مع المتخيل السردية ضمن تصور جدلي .

من الذين قدموا تصوراً مغايراً للتاريخ الفيلسوف الألماني هيجل الذي يرى في التاريخ

مرحلة تنتهي باكتشاف الروح؛ ولهذا فهو يميز بين ثلاثة تصورات للتاريخ، هي⁽⁷⁾:

- التاريخ الأصلي .
- التاريخ النظري .
- التاريخ الفلسفي .

يتصل المنظور الأول بعمل المؤرخ المعني باللحظة المعاصرة التي يعاينها، ويدونها؛ فهو عمل توثيقي، يهدف إلى تتبع الأحداث من لدن المؤرخ الذي يعيش أحداث عصره، وروحها⁽⁸⁾، في حين أن التصور الثاني أقرب إلى منهجية بحثية تضطلع بتجاوز ثبوتية الأحداث، وروايتها، إلى المقارنة بينها، بالتجاور مع النقد لفعل التاريخ القائم على الحدث، ومن هنا، فإنه يضع فيها شيئاً من روحه، وفكره؛ بهدف استخلاص قيم أو دروس ما⁽⁹⁾. في حين يمتلك التصور الثالث منظوراً مغايراً بالكلية عن التصورين السابقين، فهو يسعى إلى دراسة التاريخ من خلال الفكر⁽¹⁰⁾. فإذا كانت الفلسفة تتأمل التاريخ من وجهة نظر هيغل، فإنه يمكن أن نعدّل هذا التصور لنجعل من الرواية والفن عاملي تأمل للتاريخ أيضاً.

إن تمثل البعد السردي بنزعة التاريخية يسعى لتمثّل تجليات روح مجموعة، أو شعب ما من منطلق أن الأفراد يظهرون ويختفون، في حين أن الأنواع تبقى، وتكرر، والفكر وحده القادر على إدراك ذلك⁽¹¹⁾. ومع أن هيغل يرى في مفهوم الفلسفي للتاريخ البشري بأنه معني بالبشر عامة، فهو لا يقتصر على أمة بعينها، غير أن الوعي لهذا التاريخ هو الذي يحدد وجهته، ووظيفته، وفي هذه الحالة، فإن السرد بصبغته التاريخية يهدف إلى تمثل هذه الروح الكامنة، ولكن عبر متخيل سردي إنشائي، يشتغل بوصفه نظاماً خطائياً محايثاً، فالروح Spirit بتكوينها اللغوي في معجم كامبريدج تشير إلى "طريقة في التفكير، والشّعور، والسلوك، وعلى وجه الدقة تحيل إلى النمط التقليدي من السلوك لمجموعة من الناس، أو الأمة، كما ينظر له على أنه نشاط يتخلل الزمن، والمكان"⁽¹²⁾. وبذلك، فإن اهتمامنا ينصب على هذا البعد الجدلي، من منطلق أن الكتابة المتخيلة تتكئ

على أدوات تهدف إلى ابتناء الروح ، ولا سيما عند وجود عوامل مقاومة للوجود ، وعليه ؛ يجب أن تتقدم الرموز ، والطقوس ، والإشارات ، والخطابات التاريخية كي تصون هذا الوجود ، وتعززه .

وربما لا يتعد "غيرتز" كثيراً عن هذا التوصيف من خلال اعتماد وجهة نظر أنثروبولوجية ، فهو يرى أن مفهوم روح الجماعة Ethos هو النظرة إلى العالم ، أو تلك الخاصة التي تطبع حياة الناس ، أو أسلوب الشعب ، بما في ذلك الأخلاق والذوق الجمالي والمزاج العام ؛ أي نظرتهم تجاه أنفسهم والعالم كما تتجلى في حياتهم⁽¹³⁾ ، وهذا ما نحاول أن نلتمسه في التشكيل السردي لرواية إبراهيم نصر الله الذي حاول أن يعكس هذه الروح في رواية متعددة المستويات ، وهذا يشمل الحقبة الزمنية ، ومرجعيتها ، بالإضافة إلى الشخصيات ، والأحداث ، والمكون المكاني ، كل ذلك في سياق التداخل بين التاريخي والمتخيل .

لقد شكلت العلاقة بين التاريخ والسرد مجالاً معرفياً لكثير من الباحثين الذين انشغلوا بهذه العلاقة الجدلية بين المكونين ، ولا سيما لدى النقاد والفلاسفة ، غير أن الملاحظ أن هذا المستوى القلق لتلمس العلاقة بين المكون التاريخي والسرد ، يتأتى من أن الثاني عالم فني مكتف بذاته ، في حين أن الأول يأتي بوصفه حقلاً معرفياً تشوبه بعض الملاحظات التي تتصل بمستوى موضوعية التأريخ ، والمنهجية ، فضلاً عن مقدار ورود القيم المتخيلة والدخيلة على التاريخ ، وعلاقته بالحاضر ؛ مما يدفعه إلى أن يكون قيمة توثيقية جافة لا تمكث في الوعي ، وبوجه خاص الجمعي منه ، في حين أن السرد يقع في خانة التكوين الجدلي لكونه ينهض على بنية متخيلة تستند إلى مواصفات فنية تشكل العالم المتخيل عبر شخصيات ، وأحداث ، ووصف ، وحوار ، وحبكة ، وغيرها . في حين أن الاستنادات المرجعية التي تتكى عليها الرواية ، ولا سيما الرواية التاريخية ، تمثل قيمة مضافة ؛ فالنظر للمرجعية التاريخية بأحداثها وشخصياتها في البنية السردية لطالما شكلت مجال بحث بين نقاد الرواية ؛ ولهذا فإن التحديد المفاهيمي قد اجترح أيضاً من الآراء التي بحثت في تعريفات الرواية التاريخية بوصفها فعل إحالة لفترة زمنية ماضية ، ولكن التشديد يتمثل بأهمية أن تكون الأحداث ، أو الشخصيات مستندة إلى تمثيل حقيقي

أو واقعي؛ أي أنها تنطوي على المرجعية التاريخية كما اتفقت معظم المصادر التي عرّفت الرواية التاريخية من منطلق كونها رواية تتناول حقبة زمنية معينة تسبق زمن المؤلف، أو زمن الكتابة - على الأقل - بجيل أو جيلين، وفيها يسعى المؤلف إلى تجسيد، أو تصوير عادات، وثقافة ذلك الزمن⁽¹⁴⁾.

ومع أن ثمة إشكالية شديدة الأهمية في البنية التعريفية لهذا الشكل الروائي، وتتصل بتموضع الشخصية في السياق السردي سواء أكانت متخيلة "مختلقة" أو حقيقة (لها مرجعية تاريخية واقعية) فإنها تعدّ في معظم الأحيان محور العمل؛ ولهذا يجب أن تصوّر بطابع سردي من حيث حيويتها؛ بحيث تخضع لكثير من الاختبارات، أو الصراعات التي تحفز تلقي القارئ لتكوينها، ومسلكها السردي... يقول لوكاش بهذا الصدد: "إن هدف الرواية التاريخية ليس إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة، بل الإيقاظ الشعري للناس الذين برزوا في تلك الأحداث، وما يهم هو أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بهم إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك تماماً في الواقع التاريخي"⁽¹⁵⁾. ولعل من أوائل الذين أدركوا الوعي التاريخي للتمثل الجمعي التاريخي الروائي الإسكتلندي والتر سكوت⁽¹⁶⁾، غير أن الرواية خضعت فيما بعد للعديد من التحولات؛ مما يحتم علينا تتبع المنظور الجدلي للرواية التاريخية نظراً للتباين الشديد للآراء التي قاربت هذا المشكل النقدي.

من أبرز الذين تناولوا الجوانب الجدلية بين السردي، والتاريخي المفكر الماركسي المجري جورج لوكاش، ولا سيما في كتابه "الرواية التاريخية"، بالإضافة إلى الفيلسوف الفرنسي بول ريكور وكتابه "السردي والهوية التاريخية". وهنا يلاحظ أن الكتاب الثاني يرفض تناول الساذج للتاريخ بين ثنايا الحبكة السردية، إذ ينظر له على أنه شكل من أشكال الحبكة، وبالتحديد عندما يكف التاريخ عن أن يكون مقصوراً على ذكر تاريخ (وقائع فقط) في حين تكمن قوة السردي في قدرته على النظر للتاريخ على أنه بناء حيكات ينبغي فهمها⁽¹⁷⁾، وبذلك فإنه يستنتج بأن هذا الفعل يعدّ نتاجاً لا يعكس تمثيلاً حقيقياً للتاريخ، إنما ثمة علاقات متناقضة بين كلا المكونين، وهذا يقترب من تفسير عبد الله إبراهيم للهوية السردية القائمة على تشكيل جديد يستهدف التعبير عن حياة الإنسان،

ولكن بأسلوب "أفضل من التاريخ وحده، أو السرد الأدبي بذاته" (18).

يرى لوكاش في الرواية التاريخية تمثيلاً أو انعكاساً لمنتج قوامه الصراع، وتمثيلات لمراحل معينة، فالتاريخ، من وجهة نظره، يرتبط بالحدث؛ ولهذا، فإن وظيفة الفن تصوير العظمة القومية، أو تحليل الانهيار، وأسبابه، ويسوق لنا مثلاً على ذلك "ألمانيا" كما جاءت في شعر الشاعر الألماني هاينه الذي جسّد الجدلية التاريخية، في حين أن الجمهور لم يدرك سوى الانطباع (19). يقدم لوكاش الحدث التاريخي ولكن بغية فهمه، وقراءة أثره على الفرد والمجموعة عبر الفن، فمن خلال قراءة روايات ستندال - على سبيل المثال - فإن القارئ سوف يتمكن من تقدير أثر الحكم الفرنسي على شمال إيطاليا (20)، وهكذا نخلص إلى أن تكوّن الشعور القومي قد بدا حاسماً في تحليل لوكاش للأثر التاريخي، وتعالقه البنيوي مع الفن، أو الرواية، وهذا يقودنا إلى فهم لوكاش للتفسير الهيجلي للتاريخ ولكن بوصفه صراعاً، أو لعله فعل معارضة لنفسه، فالإنسان نتاج نفسه، ونتاج نشاطه في التاريخ، ولهذا عليه أن يتغلب على نفسه (21).

التوصيف السابق يعد خير معين لفهم مسوغات الرواية التاريخية، ودوافعها، ووظائفها، فهي تتجاوز محاولة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة إلى ما هو أعمق من ذلك، كما يعلل لوكاش مشدداً على "الإيقاظ الشعري للناس الذين برزوا في تلك الأحداث؛ فما يهمهم هو أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بهم إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك تماماً في الواقع التاريخي" (22). ولكن ثمة أمراً آخر يبدو شديد الاتصال بالفن أو الرواية؛ إذ يرى لوكاش أن تصرفات البشر خلال الأحداث يمكن فهمها، وإدراك دوافعها لا من خلال النظر إلى الأحداث الكبرى فحسب، إنما عبر الأحداث غير المهمة ظاهرياً (23)، فطبيعة هذه الوحدات الصغرى من الأحداث - ربما - تقودنا بصورة منطقية للنتائج، وهذا يمكن أن نراه ماثلاً في رواية نصر الله، وروايات غيره من الروائيين الفلسطينيين التي تعكس صورة للمجتمع الفلسطيني، وقيمه، وصراعاته، وضعفه، كما قوته، وأخطائه، سواء أكانت على مستوى الأفراد أم القيادات (24)؛ أي أننا على اطلاع يشمل البنية المجتمعية برمتها، فهذا النوع من الروايات يتجاوز وظيفة مقاومة المرويات الصهيونية، وخطابها إلى ما هو أعمق من ذلك، ومن

ذلك، على سبيل المثال، رواية "الطنطورية" لرضوى عاشور التي سعت إلى تقديم نسخة أخرى مناقضة للنسخة التي قدمتها المروية الإسرائيلية عن مجزرة قرية الطنطورة، ولكنها حافظت على هامش من الإنساني، فعالجت الحب، والقلق، والزمن؛ أي ما يميزنا كشر (25).

الرواية التاريخية في صيغها المتعددة، تبقى معنية بمحاولة توصيف الثورات، والصراعات؛ أي المفاصل التاريخية في حياة أمة ما، وهذا ما يجعلها شديدة الارتباط بتفسير الزمن، أو الحقبة، فضلاً عن الأحداث التي انطوت عليها، وهذا ما يجعلنا نذهب إلى طرح عدد من الأسئلة التي تتعلق بهدف تكوّن خطابات تتعالق بوظائف الكتابة أو بالصيغة التي ارتضاها إبراهيم نصر الله في عمله؛ حيث سعى إلى رصد فترة زمنية تمتد من 1875 - إلى زمن النكبة 1948، في حين أنه سعى إلى معالجة باقي أزمنة ما بعد النكبة في سلسلة أعمال أخرى، اندرجت مجتمعة في سلسلة "الملهاة الفلسطينية".

إذا ما تأملنا هذه الحقبة الزمنية في رواية زمن الخيول البيضاء، فإننا سنجد أنها تستجيب لتكوين البعد الاشتراطي للرواية التاريخية؛ كون زمنها يسبق زمن المؤلف، ولكنها من ناحية أخرى، تشير إلى بعد دلالي آخر، فالخطاب الفلسطيني لطالما كان عالماً في زمن النكبة على اعتبار أنه اللحظة المفصلية في بروز المشكلة الفلسطينية، وهذا يعني أن الفلسطينيين لم يوجدوا إلا مع النكبة التي كانت فعلاً تمهيدياً لإجهاض وجودهم، فلا جرم أن يعدها البعض النقطة، أو الحدث الذي يجتمع عليه كل الفلسطينيين⁽²⁶⁾، وأعني من حيث كونها وعياً تاريخياً، ومن هنا نقع على مفارقة تتمثل بأن وعي الوجود، قد انبثق مع تهديد الوجود، وهذا تضافر مع عوامل تشكل الدولة القطرية في الدول التي كانت خاضعة للاستعمار، ومن قبل الاستعمار، فنشأت الدول العربية بصورتها الحالية، فلا جرم أن يسعى إبراهيم نصر الله إلى خلق وجود يمتد ما قبل النكبة وصولاً إلى النكبة عينها بما شهدته من أحداث.

ثالثاً- خطاب المتخيل والوظائف الدلالية

أ- التثبيت والتقويض

تسعى الرواية ذات المرجعية التاريخية إلى تحقيق عدد من الوظائف، ومن ذلك تثبيت الحدث التاريخي، أو تقويضه، وفي كلتا الحالين ثمة محاولة لتأمل الحدث. في رواية زمن الخيول البيضاء التي اتخذت من عنوان "زمن الخيول البيضاء" إطاراً رمزياً تاريخياً بهدف الإحالة إلى زمن ما، لعله مغاير تماماً لما كمن في الذاكرة الفلسطينية، ونعني النكبة بوصفها أصل وجود الفلسطيني غير المكتمل؛ فضلاً عن نقض المقولات الصهيونية الشائعة القائمة على نفي الوجود الفلسطيني التاريخي، ولهذا فالرواية ترتهن إلى سياق زمني يغاير ما بعده. إنه فعل ارتدادي، أو ارتجاعي، وكأن ثمة نزعة تقدير مبدئي إلى زمن الخيول التي تحيل إلى قيم الأصالة والحرية والتفرد، بالإضافة إلى منظومة قيمية جسدها الرواية بالإحالة إلى تمثيلات صور جمعية للفلسطينيين، علاوة على صيغ التحولات التي تمتد من زمن الاحتلال العثماني، مروراً بالاستعمار البريطاني، ومن ثم الهجرة اليهودية، والنكبة، وأفعال المقاومة على امتداد تلك الأزمنة؛ أي أن الرواية تبدأ من الوجود، وتنتهي إلى تهديدات الوجود، أو نفيه من الزمن.

تتغيّر رواية إبراهيم نصر الله في جزء منها عكس تمثيلات النكبة؛ فهي معنية بصوغ صيغة تاريخية تتصل بتأكيد وجود المجتمع الفلسطيني، وتثبيته في ظل ظرف تاريخي، وهذا الظرف التاريخي تتناوبه آليتان: الأولى الواقعي التاريخي، والثانية المتخيل. تكتسب آلية المتخيل صيغة فنية لا تهدف إلى تحقيق القصيدة التاريخية، أو الموضوعية التي تحدث عنها بول ريكور فحسب⁽²⁷⁾، إنما تهدف أيضاً إلى تحقيق وظيفة العلاقة التفسيرية للتاريخ مع الاستناد إلى براهين⁽²⁸⁾، بالتجاوز مع شكل جمالي متخيل، وهو ما يمكن أن يتوافق مع منظور هيجل ولو كاش، ولكن في سياق مصطلح الجدلية بين البحث التاريخي والكفاءة السردية⁽²⁹⁾، وبناء عليه نتأمل التعالق الجدلي بين التاريخ والسرد في رواية إبراهيم نصر الله الساعية إلى تخليق وعي جمعي تاريخي يتكئ على المتخيل السردية.

تنهض الوظيفة السردية على رسم صورة فلسطين "المكان" عبر ثلاثة أزمنة، أطلق

عليها نصر الله عنوان " كتب " ، الأول يتصل بالحكم العثماني الذي بدا ضعيف التأثير على البنية الوجودية للفلسطينيين، ولكن أثره تجلّى في القمع، والقهر، والأثر الاقتصادي، ومع ذلك، فقد كان الفلسطينيون قادرين على المواجهة، وتسيير أمورهم على الرغم من ثقل هذا الحكم، ومطالبته المستمرة بالضرائب، أو بترحيل الشبان الفلسطينيين للحرب، وعدم عودة الكثير منهم، ولكن هذا الفعل لم يكن يهدد الوجود الفلسطيني الجمعي، الذي بدأت علامات أركانه بالاختلال بشكل ملاحظ مع بدء الحكم الإنجليزي، وما أعقب ذلك من ثورة عام ١٩٣٦ التاريخية، وصولاً إلى النكبة.

تتجلى وظيفة التثبيت التاريخي للوجود في مساره عبر عدد من الأحداث التاريخية التي تستند إلى صيغ واقعية، أو مثبتة تاريخياً، وهي تتحدد بجملة من الأحداث التاريخية (الحكم العثماني، والاستعمار الإنجليزي، والضرائب، وثورة 1936، والنكبة) وما صحب ذلك من مجازر، وتواطؤ الكنيسة، بالتجاور مع توظيف بعض الشخصيات التي تندرج ضمن المرجعية الواقعية التاريخية، ولكن في سياق من الحكمة السردية المتخيلة. ولعلنا نتفق على أن العديد من المراجع التي أدرجها راوي العمل لا (مؤلف الرواية)، تمثل مرجعية شديدة الأهمية في تكوين صورة عن البنية التاريخية التي تتقاطع من الشهادة، والمعاناة من لدن الراوي الذي اتكأ على وثائق تنتمي إلى عالم الواقع لا المتخيل، وكأن نصر الله يقيم عالمه السردى على خط رفيع بين الحقيقة والمتخيل؛ حيث يجسد سردياً الفترة التي تمتد من الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى عام النكبة في بنية مختلطة تحتل التاريخ والمتخيل معاً.

هذا النسق التاريخي يعبر عنه كنايةً بظهور الخيول التي أطلقت عليها أسماء تحيل إلى قيم موجبة، كالريح، والحمامة التي شكل وجودها ارتباطاً عضوياً وروحياً مع الإنسان الفلسطيني، بل إنها حضرت بوصفها روحاً شعرية تسكن الشخصيات التي ارتبطت بها، وبالتحديد " خالد "، وهذا يشمل الضابط الإنجليزي " بترسون " الذي كان يعشق الخيل، ويتعامل معها من منطلق نمط الروح التي تسكنها، ولكونها تحيل إلى مجال القوة، ولكن ضمن منظور رمزي؛ إذ يمكن أن نستعير مقولة أن الحصان تجسيد لمنطق القوة، والجمال لتاريخ سابق لزمان النكبة، ومع بدء غياب هذا التعالق العاطفي مع الحصان تفقد الأشياء

بريقها، فمع تلاشي خالد من المشهد المتخيل، وتخلي الحفيد "محمود" عن هذا الموروث، ومنه التعلق بالخليل، وحياة القرية، يبرز الضعف، وتنحل عُرى الارتباط بتلك القيم. ربما كان مسار الحفيدين "محمود"، و"ناجي" يعدّ في خانة التطور الطبيعي للشخصية عينها، أو لبنية كبرى للمجتمع في تطوره تجاه التحديث كما تمثله شخصية "محمود"، في حين أن "ناجي" اختار المقاومة التي لم تكتمل، غير أن هذا ربما يبدو غير ذي وجهة؛ كونه لا يتسق مع سير الأحداث، ومنطقها، فغياب شخصية خالد يفقد المكان جاذبيته انطلاقاً من أن خالدًا كان يحيل إلى رمزية مثالية، أو القيادة - الروح التي تؤمن بقيم ما.

في هذه المستويات الوظيفية، تتجلى الرغبة في خلق روح للتاريخ بتكوينه الجمعي والعاطفي؛ رغبة في خلق نمط مضاد للمروية الصهيونية التي تسعى إلى أن تفرغ أرض فلسطين من مضمونها التاريخي، غير أن إبراهيم نصر الله يسعى إلى خياطة ثوب لهذا التاريخ ضمن بنية سردية متخيلة، تتكئ على المتعة السردية التي تحققها الحكاية، إذ يضيف طقماً من الممارسات الثقافية والاجتماعية والإنسانية في فلسطين، ومن ذلك قصص الحب، والغناء، والأشعار، وهذا يشمل طقسية الحياة في فلسطين بهدف تمكينها في ذاكرة الشعب الفلسطيني خاصة، والقراء عامة. ولعل هذا ما يبرر وجود شبكة دلالية تنتقل فينا بين مستويين: الأول البعد التوثيقي التاريخي، والثاني المتعة السردية نتيجة التخيل القائم على وحدات حكائية مساندة تعمق القيمة الحياتية للفلسطيني، وهذا يأتي مجتمعاً ضمن نص لا يخاطب فقط البنية العقلية التي ربما تتعرض للانتهاك والضياع في الوعي الجمعي، ولكن عبر مستوى جمالي روحي تاريخي، فكما نعلم بأن الإلياذة والأوديسة قد جاءتا تجسيداً تاريخياً لحقبة زمنية معينة، ولكن هذا الزمن لم يكن مستمر، ويتجذر في الوعي الغربي إلا عبر هذين النصين اللذين أسهما في خلق الوعي الفلسفي التاريخي الجمعي الذي يقوم على بعد روحي عميق يستند إلى المروي.

يلاحظ أن التقييم الدلالي للأحداث، في مجمله، يأتي استجابة لتحديد معنى التجذر في الأرض بوصفها ثابتة مقابل الطارئ في الأحداث، وقد عبر عن ذلك دلاليًا في المعنى السيميائي للخيول، والمهرة التي وجدها "خالد"، وما قامت به عائلة المساعدة من تقديم هذه الخيل إلى خالد باعتبارها هدية، مع رفض أن يتم تلقيحها إلا من خيل أصيل. هذا التمحور حول النقاء للخيل يستجيب لمعنى طقوسي، أو قدسي، أو فلسفي، ويعني

قيمة رفض الطارئ، والدخيل؛ أي تحقق معنى النقاء، وهذا يحيل إلى زمن إيجابي، ولكن كل هذا قد أصابه التغير والتحول مع قدوم الإنجليز؛ ومن ثم تشكل المستعمرة اليهودية بالقرب من القرية التي جاء اسمها تكريساً دلاليّاً؛ حيث حملت اسم "الهادية" - قرية متخيلة على أرض فلسطين - في حين أن سائر السياقات الجغرافية الأخرى، تحيل إلى فلسطين الواقع والتاريخ، ومنها مدن القدس، ويافا، ونابلس وأسماء بعض القرى.

ربما اسم قرية الهادية يشتق وضعه من الهدوء، فثمة دلالة إيجابية، غير أنها في تعاطيها مع الظلم والعدوان، تتحول إلى النقيض من ذلك، على الرغم من التنافس بين عائلتين كبيرتين في القرية، وهذا ما يحاكي واقع القرية الفلسطينية تاريخياً؛ إذ يضاف إليه طقوس الزواج وسلوكيات النزاع، والحب، والأغاني، والطقوس والمعتقدات التي شكلت رافداً دلاليّاً بهدف تشكيل مقاصد البنية المتخيلة لمفهوم الأمة القائمة على الروح، وأهم دعائمها الأسرة كما يشير هيجل⁽³⁰⁾. وهذا يعني بشكل من الأشكال محاولة خلق نسق تاريخي يهدف إلى إعلاء التمحور، وتكريسه، بالإضافة إلى التجذر العاطفي للفلسطيني مع أرضه بوصفها حاملة لبعده التاريخي الذي فقدته مع الاحتلال، وبدء النكبة، وما أعقب ذلك من تشتيت.

تبرز الشخصية (الإنسان) بوصفه مركز العمل، أو محور العملية التي يحاول التاريخ أن ينهض عليها بوصفه مدونة فلسطينية، تسعى إلى أن تقيم توصيفاً وجودياً "أنطولوجياً" للوجود على فلسطين، ومع أن الشخصيات المحورية في العمل قيمة متخيلة، بيد أن بعض مرجعياتها واقعية تاريخية؛ ما أضفى على العمل صيغة تاريخية، تكتسب حقيقة التمثيل الواقعي، فالإحداثيات تقترب لتكون قيمة وثائقية عبر إضافة بعض الشخصيات المستجلبة من التاريخ الحقيقي، يعاضدها تخيلاً، أحداث، وحبكة، وتمثيلات، تشتبك مع مفعول الحكيم عبر مركزية عائلة خالد "المتخيلة"، وعلى وجه التحديد "خالد" الذي شكل مرايا تعكس قيم زمن الخيول البيضاء، فهو العاشق، والفارس، والشجاع، والوطني، والشهم، وهي تمثيلات تقترب من صيغ أسطورية على النحو الذي تحدث عنه نورثرب فراي في معرض تحليله للصيغة السردية، وتقاطعاتها في كتابه "تشریح النقد" (31).

ب- المسارات الجدلية للتاريخ

تستند الرواية في طبيعتها التفسيرية الشارحة إلى تمثل النكبة بوصفها فعلاً أو حدثاً تاريخياً غير سويّ، عطلّ آلية التطور الطبيعي للشعوب المستعمرة، ومن هنا لا بد أن نلجأ إلى التعمق في خلفيات الفعل التاريخي المجسد سردياً، فالنسق المخاتل للتقدم اليهودي على الأرض، كان يتحقق خفية، فأرض القرية كانت تقضم شيئاً فشيئاً، وكما يبين الخالدي فإن الحقيقة التاريخية تذهب إلى أن معظم الفلسطينيين من طبقة المتعلمين، وصاحبي الأملاك، قد فقدوا امتيازاتهم، وباتوا لاجئين بعد هذا التاريخ، ولا سيما في الجزء الغربي من مدينة القدس⁽³²⁾.

إن صيغة مرويات النكبة قد وردت في عدد من الأعمال السردية، فبرزت ثيمات متكررة في الرواية الفلسطينية تشمل القتل والتهجير والنفي الممارس من قبل العصابات الصهيونية، ومن أبرز تلك الأعمال رواية "الطنطورية" لرضوى عاشور⁽³³⁾، و"اسمي آدم"، لإلياس خوري⁽³⁴⁾، بالإضافة إلى أعمال رشاد أبو شاور، ويحيى يخلف، وسحر خليفة. فعلى سبيل المثال نجد أن الفرق بين رواية زمن الخيول البيضاء وغيرها من الروايات التي تتمثل زمن النكبة أن هذه الروايات تنظر إلى التاريخ الفلسطيني انطلاقاً من النكبة، وكأنه لا يوجد شيء قبل الحدث. فعلى سبيل المثال في رواية "اسمي آدم" لإلياس خوري ثمة كتل سردية يستند إليها الحدث في تشكيل مروية مضادة للمروية الصهيونية، ولا سيما المجازر التي ارتكبتها العصابات الصهيونية في اللد، وتهجير الفلسطينيين من مدنهم وقراهم، وهذا يقع ضمن تقنية المراقبة، والتأمل، والاسترجاع، ومحاثة الفعل السردية، غير أن إبراهيم نصر الله تجاوز ذلك إلى تكريس قيمة أقرب إلى الصيغة التي تجمع بين البعد التاريخي التوثيقي، لهذا الحدث، وما قبله.

في غمرة التكوينات الداخلية لثقافة القرية، والخيول، والعشق، والتنافس، والكنيسة، والحكم التركي، ومسؤولية الأخير عن ضعف البنية الحضارية للعرب الفلسطينيين نقرأ في الرواية توصيفاً لهذا على لسان أحد رجال القرية حين يلخص معاناة الفلسطينيين في ظل حكم الأتراك، ولا سيما الإعدامات، والنزعات القومية التركية التي

بدأت بالظهور، وما صحب ذلك من تنكيل، وتجهيل، استمر بعد ذلك مع الاستعمار الإنجليزي الذي انتقل من مستوى القهر، إلى مستوى الإعداد للإجهاد على الوجود على الفلسطيني. أضف إلى ما سبق سلبية القيادات العربية؛ فثمة فقر في الاشتغال بالمسائل العامة، على حد تعبير الرجل⁽³⁵⁾.

هذا التمثيل السردي للانهيال يعزز مروية المأساة، أو الملهاة، وهذا ينهض على مسار مبدئي يتحدد بطيبة أهل قرية الهادية كما تجلت في حديث المحامي الذي ترفع أمام المحكمة لإثبات حق أهل القرية في أرضهم بعد أن خدعتهم الكنيسة التي استولت على كواشين الأرض، وما هذا النسق إلا محاولة لتفسير الأسباب التاريخية لتحقيق فعل النكبة، وضياح فلسطين. وهذا يأتي مع جملة أخرى من الأسباب، ومن ذلك ما يتصل بتقديم نموذج لاتصال الفلسطينيين بواقعهم التاريخي؛ إذ يمكن أن نبين ذلك في هذه الفقرة التي تعكس قيمة الفعل الإيجابي مقابل السلبية التي تتمثل بالأمر الواقع: "استيقظ أهالي الهادية صباح ذات يوم، فوجدوا أن الأسلاك الشائكة للمستعمرة قد تقدمت أكثر من مئتي متر، مبتلعة جزءاً من أرضهم والمراعي الشمالية والجنوبية المحيطة بهم، وحين ذهبوا إلى هناك لكي يلمسوا ما تراه أعينهم، انطلق الرصاص صوبهم على طول الجهة الغربية بكاملها" (36).

تحتل الفقرة السابقة العديد من التأويلات التي تستند إلى منظور تاريخي غير مباشر، فالتاريخ لا يستحضر بوصفه حقيقة موثقة، إنما بوصفه وسيلة لتكريس حكاية تختزنها الذاكرة، ولكن عبر نسق شعوري، فلا شيء أقدر على تحقيق ذلك سوى متخيل سردي، فمفردات كالأستيقاظ التي تدل على غفلة، في حين أن مفردة الأسلاك تدل على الاستيلاء والقوة، ومفردة "مبتلعة" تدل على الفقد، بالتجاور مع مفردات كالرصاص، البطش، في حين أن الجهة الغربية تدل على موقف سياسي يحيل إلى غرب مساند. هذه هي الحكاية بكل بساطة، وتكثيف، ومن ثم ينتقل هذا ليمسي فعلاً واقعياً، أو رسمياً، وبالتحديد حين تتحول الإذاعة التي تبث من رام الله إلى اللغة العبرية، حينها يدرك أهل القرية أن اليهود قد باتوا أقرب من أي وقت كان⁽³⁷⁾.

على خلفية قصة حب خالد لابنة الحاج سليم ، وعشقه لها ، وما آلت إليه الأحداث من انكسار لهذا الحب بداعي موت الزوجة ، ومن ثم عدم قدرته على الزواج بسبب مطاردته من الجيش العثماني ، نقرأ سرداً لواقع الحياة في فلسطين ، وقيمها التي سادت بين العائلات الفلسطينية ، بوجود نماذج من الشخصيات السلبية التي كانت لا تخلو منها قرية من حيث العمالة والخيانة ، والحسنة ، ومنها شخصيات الهبابي ، والحمادي ، والمختار صبري النجار ، والهاشمي ، علاوة على تصوير تلك النزاعات التي كانت قائمة سبباً في ضعف الفلسطينيين ، وتراجع مقاومتهم الفاعلة أمام اليهود المنظمين الذين يمتلكون رؤية وقيادة تسعى إلى تحقيق أهداف واضحة ، وهذا يستجيب لتحليل روحي الخالدي بخصوص التمايزات التاريخية والحضارية بين الفلسطينيين واليهود في تلك الفترة⁽³⁸⁾ .

وإذا كانت البنية المتخيلة قائمة على تشكيل أقرب إلى الشكل المتهاوي ، فالقيمة المسترجعة للزمن الإيجابي تبدأ من الفترة التي كانت فيها الذات قادرة على المقاومة ، بالإضافة إلى أنها تنطوي على بنى صلدة في النظر إلى ذاتها والتاريخ ، والعالم ؛ حيث استطاع " محمود الجد " أن يمثل قيمة إيجابية ، في حين أن خالداً عزز هذا الطابع ، وتحديدًا عند مواجهته القوة العثمانية التي كانت تسعى إلى تحصيل الضرائب لنتهي الحادثة بانتصار خالد مع بدء الحرب العالمية الأولى ، وتفكك الحكم العثماني ، وهذا ما تعزز لاحقاً في مواجهته مع القوات الإنجليزية ، غير أن هذا الوضع المتخيل من جهة ، والتاريخي من جهة أخرى ، سرعان ما طفق يتهاوى مع استشهاد خالد الذي تزامن مع تقدم المد الصهيوني ، وتسلبه خلسة إلى أرض القرية ، بالتجاور مع بناء المستعمرات ، وهذا تصاعد في النخبة الوطنية في فلسطين التي بدت سلبية ، أو متواطئة ؛ حيث فشلت في الدفاع عن القضية ، بل على العكس سعت إلى الإفادة منها ، ونموذجها شخصية " الهاشمي " الذي يحيل إلى شخصية تاريخية كانت تعد من قيادات الشعب الفلسطيني ، بالإضافة إلى شخصية " فوزي القاوقجي " الذي تتعارض وجهات النظر التاريخية حول دوره الوطني ، كما يحضر في هذه الفئة شخصيات لم تخضع لتمثيلات سلبية ، ولكنها حضرت بهدف تمكين الفعل التاريخي ، ومنها شخصيتا المفتي ، ونجيب نصار ، وغيرهما من الشخصيات ذات المرجعية الواقعية التي بدت هامشية الحضور في السرد المتخيل ، ويفسر هذا بأنها كانت تؤدي وظيفة

خلق إطار تاريخي مرجعي يسند المروية المتخيلة، ويضفي عليها طابعاً ثبوتياً، أو صيغة وثائقية، تعمق تلقي الرواية لقراء النزعة التاريخية.

لعل الأحداث والشخصيات ذات الإطار المرجعي الواقعي، قد شكلت خلفية لتخييل بدا في بعض الأحيان شديد الاهتمام بتكريس قيم الزمن الإيجابي، ولكن هذا التكوين لم يكن ليبدو فاعلاً في تمثيل منظومة دلالية لكيفية تحول التاريخ الفلسطيني الذي كلما تقدم الزمن فقد شيئاً من توهجه، وقيمه الإيجابية، وهذا ما تعكسه الروح التي بدت شعرية في أنظمة الخطاب السردي في مستهل الرواية، ولكنها مع تقدم الأحداث تحف الروح منها؛ إذ نبدأ بتلمس الكتابة التي تبرز مآلات الأحداث حيث يلاحظ أن الرواية تنهض على بنية منسحبة تبدأ من متخيل دافئ نابض وحيوي، ومن ثم تقترب فيما بعد من رواية تستند إلى الواقع، والتاريخ؛ أي أن المجال المتخيل يتراجع ليتقدم التاريخ؛ وبعبارة أخرى تتراجع حدة التخييل على حساب الصيغة التاريخية، ومن أهمها تراجع القيم الرمزية التي تمثلها، ومنها شعرية الحرية التي بدأت تنكفي شيئاً فشيئاً مع تقدم الزمن؛ مما يعني أن البنية الزمنية تتسم بتطابقها مع الواقع التاريخي، وفعل التحول من القيم الإيجابية إلى القيم السلبية.

إن هذا الكمون في الواقع التاريخي ينذر بأزمة كبيرة، وتداع حيث تسقط القيم، وجميع البنى التي استهلكت جزءاً كبيراً من متن متخيل زاد على (500) صفحة، وهذا يحيلنا إلى رواية "تشنو أتشيبي" "الأشياء تنداعى"؛ حيث نقرأ كيف أن القرية الإفريقية بدأت تفقد مألوفها القيمي والمعيشي الذي عدته لقرون ضمن تقاليد فلسفية تنصهر فيها عناصر الإنسان والأرض والثقافة في بنية ملتحمة، وانسجام كاملين، ولكن مع وصول المستعمر بدأت هذه العناصر تتفكك، لينهار عالم الشخصية المحورية: "أوكونكوو" شيئاً فشيئاً⁽³⁹⁾.

ثمة العديد من العوامل التي سرعت من السقوط في رواية نصر الله، ومنها الدور الإنجليزي، وتقاعس الجيوش العربية، واضطرابها في الدفاع عن فلسطين؛ حيث كانت تعصف فيما بين تلك الدول الخلافات⁽⁴⁰⁾، بالتضافر مع تواطؤ النخب الحاكمة في

فلسطين، وهناك من الأسباب ما هو اجتماعي حضاري يتعلق ببنية المجتمع الفلسطيني، وعدم قدرته على مجاراة اليهود الأكثر تنظيمًا.

إن الدور التاريخي - الذي لعبه الدير الذي أسهم أبناء القرية ببنائه، وكان يقوم بدور الوسيط من خلال جمع الضرائب وتقديمه للسلطات - يبرز من خلال وظيفة تاريخية أخرى تتصل ببعد آخر، وأعني مسؤوليته في سرقة أرض القرية من أهلها بطريقة مخاتلة، على الرغم من أن ثمة إشارات إلى أن الاختلاف الديني لم يكن مصدرًا للعداء بين الطوائف التي كانت تسكن فلسطين سواء أكانت المسيحية أم المسلمة أم اليهودية⁽⁴¹⁾. لعل العلاقة مع الكنيسة تبدو مضطربة بسبب الضرائب، وتسجيل الأراضي، فمعظم أهل القرية لم يسجل أرضه باسمه، ولكنه كان يعرف حدودها كما جاء في الرواية⁽⁴²⁾، وهذا يعلل بأن امتلاك الكوشان (وثيقة تثبت ملكية الأرض) سوف يتسبب بدفع ضرائب أكثر، وهذا ربما يفسر - تاريخياً - فقدان الكثير من السكان لأراضيهم نتيجة هذا المسلك.

تحضر قرية الهادية في ظل قوى الإمبراطوريات العابرة، ونعني الدولة العثمانية، والإنجليزية ضمن علاقة غالباً ما تبقى مشوبة بإشكالية كولونيالية حيث تنهض القوة والسلطة بوصفهما أداتي قهر أمام المقاومة، ولكن تلك الإمبراطوريات لم تكن طبيعة اقتلاع كالتالي مثلتها المستوطنة الإسرائيلية التي شكلها تقدمها، أو تمكنها عبر نسق مخاتل؛ حيث تسللت الجماعات الصهيونية من خلال الهجرات الصامتة والمنظمة إلى عمق الأرض الفلسطينية دون الإحساس برسيسها؛ إذ يفاجأ الجميع بظهور هذا البناء الضخم على حدود القرية الذي شكل رمزية لتآكل الأرض الفلسطينية، والإنسان الفلسطيني الذي بات محاصراً، كما برزت ممارسات التهجير، والقتل، والترويع بشكل منهجي بهدف تحقيق الإحلال، وقد ساهم الإنجليز بهذا حين كانوا يهدمون بيوت الفلسطينيين، ولكن في المقابل كانوا يساعدون في بناء المستوطنات الإسرائيلية "اليهودية"؛ هذا مما يعني ضمن بنية رمزية تلاشي الوجود الفلسطيني، وتراجع أمام التقدم اليهودي ضمن خطة محكمة عكستها البنية السردية من خلال نموذج قرية الهادية.

تبدو لحظة التقاطع، وفعل الانزلاق في القيمة الموجبة للوجود الفلسطيني في

أحلك صورها، ولا سيما حين يندفع الخطاب في الجزء الأخير من الرواية ليقترّب من النسق الوثائقي حيث تتراجع الحبكة، وتفقد الشخصيات وهجها؛ إذ تبدو أقرب إلى أشباح لا تقدم سنداَ إلا باعتبارها بقايا من الزمن المقاوم، أو بعض وشائج زمن الخيول البيضاء، وهكذا نرى كيف تتفكك قيم الذات، وتحلل مع غياب "خالد"، في حين أن القرية قد بدأت تعاني من سطوة الوجود اليهودي على الرغم من محاولات المقاومة عبر الجماعات التي تشكلت للدفاع عن القرية، والمعارك التي حدثت، ومنها نسف الجسر، وتأمين السلاح، ومن ثم الهدنة التي أعلن عنها، ولكن المعطيات الحضارية والتاريخية التي تحدث عنها الخالدي تاريخياً، وإبراهيم نصرالله تخيلاً، فرضت نفسها على الواقع حيث كان الأهالي مخيرين بالمغادرة أو البقاء في وقت ما :

" وعلى مدى أسابيع ظلوا ينتقلون بين الجانبين، إلى أن توصلوا إلى اتفاق: يخرج الجيش المحاصر بسلاحه كاملاً، دون أن يتعرض له أحد. يحق لمن أراد من أهل الهادية أن يبقى وأن يعيش حياته التي عاشها في الماضي، ومن أراد الخروج فباستطاعته مرافقة القوات المنسحبة " (43).

في تكوينها العميق الذي ينطلق من الزمن الثالث للرواية أو الكتاب الثالث، تتضاءل قيمة المكان، وتحلل الزمن، ويفقد بريقه شعرياً، ويتقدم تمثيل متخيل لا يفقد مرجعيته لصورة الهادية المتخيلة، وهي تعكس فلسطين التاريخ:

" نصبت خيام صغيرة وتحولت أغطية إلى خيام، وراحت القذائف تتساقط على القرية حتى بات الناس يخشون التفكير في بيوتهم، فبمجرد أن كان أحدهم يقول سأعود إلى بيتي كانت قذيفة ما تسقط على البيت وتدمره أو يقتلعه لغم من أساساته " (44).

ولعل هذا ينتج بفعل هذا التمثيل لواقع النزاع الذي بدا محاولة لتحقيق معادلة تمكين البعد التاريخي في نسق متخيل، وهذا ينقلنا إلى مستوى تاريخي توثيقي حين نقرأ مروية تدخل الجيوش العربية أو جيش الإنقاذ للدفاع عن فلسطين، ولكن المروية هذه تتطابق مع السلبية، والتشردم، وأفعال الخيانة التي شابت هذا المسلك كما تعكسها كتب التاريخ التي تتحدث عن السلاح الفاسد، وعبارات " لا أوامر "، وغير ذلك من خطابات

شاعت بين ثنايا الكتب التي تعري فشل الجيوش العربية، وكمنت في وعي المكون الجمعي التاريخي المتناقل شفاهة بين أفراد الشعب الفلسطيني، وكما تجسدت الكلمات على لسان الضابط الإنجليزي بترسون بوصفها أمراً واقعاً :

" منذ اليوم سيكون لكم جيران جدد، وعليكم أن تحترموا وجودهم . سيمنع اقتراب أي شخص أقل من مائة متر من الأسلاك الشائكة، وكل من يقترب سيتحمل نتائج فعلته . هذه الأراضي ليست لكم، إنها من أراضي الدولة " (45) .

هذه المستعمرة أحدثت تحولاً في تكوين المأساة الفلسطينية حيث بدت قدراً انبثق فجأة من العدم . ولعل هذا يشي بأن النكبة، والمأساة الفلسطينية لديها فصل يبدو غريباً؛ بحيث يبدو الأمر، وكأنه قد حصل بين ليلة وضحاها :

" كما لو أنها سقطت من السماء، استيقظوا صباحاً فوجدوها تغطي رأس التل الغربي، ببيوتها وأسلاكها الشائكة، وأبراجها الخشبية العالية .

كان الواحد ينادي منهم الآخر بصمت كما لو أنهم ضيعوا الكلام، ولحظة بعد أخرى تجمع أهالي الهادية غير مصدقين أعينهم " (46) .

يشار إلى أن أسطورة الحياد الإنجليزي بدت واضحة في متن الرواية، بل نبذت في أكثر من موقع، فضلاً عن عدم افتقار الشعب الفلسطيني للأدوات والوسائل، فهو غير مجهز لمقاومة اليهود، أو التصدي لهم، كما ظهر في قرية الهادية التي تحول إلى رمز لاستلاب فلسطين :

" لم يكن ما يدور في فلسطين كلها سراً، فما يحدث في الهادية يحدث هناك في عشرات القرى، ولكن النار وصلت إلى أطراف ثوب قريتهم هذه المرة . . . وبدا العجز جزءاً من كلمات بعض الرجال الذين تحدثوا عن كف لا تستطيع مناطق مخرز، وعن الحماية الإنجليزية للمستعمرات اليهودية، وعن عدو لم نستطع أن نراه حتى الآن " (47) .

وعبر قطع زمني نرى خالداً، وقد تقدم به العمر؛ مما يعني أنه ينتمي إلى الجيل الذي سوف يكون على تماس مباشر مع المقاومة ضد الإنجليز . فالرجل قد بدأ يشهد قيم التحول

في مجتمع القرية ، ومن ذلك المضافة التي شكلت قيمة رمزية واضحة في الصفحة الأولى من الرواية، وهنا نعاين كيف بدأ يحل المقهى مكان المضافة، وراديو "الفيلبس" أمسى بدلاً عن اللقاءات؛ مما جعله يقاوم هذا التحول، فنبد الجلوس في المقهى حيث كان يرى فيه انتقاصاً من هبة الرجل، وغير ذلك من قيم جديدة طرأت مع قدوم الإنجليزي، ولعل تكوين هذه الشخصية بدأ ينتقل من طور الشخصية الأسطورية إلى أن يتحول إلى طور البطل الإشكالي بحسب لوكاش، فخالد يشهد أفول القيم النبيلة في عصر الانحطاط، وبذلك فإن التكوين السردى التاريخي يبدو على صلة بتحقيق ثبوتية التاريخ، وتأثيره على الحياة الاجتماعية والثقافية للشعب الفلسطيني في تلك الفترة، لقد لامس خالد هذا التحول في بنية القرية، ومن ثم هجرة الفلسطينيين لأراضيهم للعمل عند الإنجليزي في معسكراتهم، ولا سيما نتيجة هجمات الجراد، وقلة الأمطار، وكثرة الضرائب. هذا التحول في تكوين القرية، يبدو إنذاراً بشيء ما، ربما بأن العالم الذي كان يعرفه خالد قد تغير، وبدأ يتهاوى.

إن المنتج الكولونيالي المتمثل بإدخال المستعمرة في نمط اقتصادي معين يهدف إلى تفكيك بنيات المجتمع، وإضعافها، وبعبارة كولونiale تحويلها إلى تابع، ولعل هذا شكل بطانة ضعيفة يمكن من خلالها تكريس فعل الإحلال لمجموعات يهودية منظمة، تعمل، وتؤمن السلاح كي تحقق موقعاً اقتصادياً متقدماً. كل ما سبق نتيجة الدعم الإنجليزي، وهذا بالتحديد يبرز قدرة الرواية على خلق مروية تتناول الأدوار الكولونiale للوجود الإنجليزي في فلسطين، وإنتاج النكبة، وهذا يبدو مندرجاً في وظيفة تفسيرية تحليلية، ولكن ضمن بنية متخيلة؛ ما يعني أن إبراهيم نصر الله يقدم وجهة نظر تفسيرية للتاريخ، ويموضعاها في مخيال الشعب الفلسطيني خاصة، والقارئ عامة:

" بين الحراثة والحصاد تراكضت الأيام وبات موظفو الضرائب ينتظرون المحاصيل على البيادر قبل وصولها للبيوت. وزاد الأمر سوءاً قيام الحكومة البريطانية بوضع يدها على كثير من أراضي القرى المجاورة. أحاطتها بالأسلاك الشائكة، امتلاً الفضاء بضجيج الآليات ودخانها الأسود الذي لم يروا سحاباً مثله، وقبل أن تنتهي أسئلتهم، التي لم تتوقف عن سر خطوتها الجديدة" (48).

المقاومة الفلسطينية للعدوان اليهودي على القرية تُمثل بمحاولة حرق المستوطنة، ولكن هذا لا يعني إلا فعلاً تكميلياً لرسم مسار تاريخي لحركة المقاومة الفلسطينية التي بدأت من أيام العثمانيين مروراً بالإنجليز، وانتهاءً باليهود، ولكن السياق التاريخي بدأ مختلفاً هذه المرة، فالوجود الإنجليزي كان استعماراً، بلا أي طابع استيطاني، في حين أن الحركة الصهيونية بدت محاولة كولونيالية شرسة لنفي الفلسطينيين، واستيطان أرضه. إنه نفي الوجود الكلي، بالتواطؤ مع القوات الإنجليزية التي نكلت بالفلسطينيين؛ مما يعني أن الدولة اليهودية قد قامت بحماية من الإنجليز، ولكن هذه الرسالة تبدو مشوشة؛ كونها تحيل إلى وضع تاريخي قلق، فمع بدء حرب الإنقاذ، ندرك أن معظم الجيوش العربية كانت محكومة بالقوة الاستعمارية؛ فهي لا تمتلك قرارها، فضلاً عن كونها ضعيفة، وما الإستراتيجيات والاجتماعات التي قامت بها دول في الجامعة العربية ما هي إلا محاولة عبثية لم تحقق نتيجة، وهنا نتلمس بعداً وثائقياً أشار إليه كتاب عارف العارف الذي تتبع سقوط فلسطين ضمن منهجية تاريخية تصف الأحداث تباعاً، فكانت موثقة بالتواريخ والأسماء، والقرارات، في حين أن إبراهيم نصر الله يضع ذلك في سياق لا يمكن أن يتلاشى من الذاكرة، كونه مرتبطاً بمنظور حكائي، شخصيات، وأبطال، وقصة حب، وشجاعة، وقيم وحييات أمل، شكلت مجتمعة زاد الكتابة السردية التي عملت متضافرة مع الإسقاطات التاريخية، وأدخلتها في علاقات بنيوية.

يظهر في الجزء الأخير أو الكتاب الثالث من الرواية الطابع المتهاوي؛ أي الانتقال من زمن الخيول إلى زمن التراب، أو (الأرض) التي بدأت تفقد موقعها في النفس؛ فهي بدأت تتآكل، ويفقدها أصحابها شيئاً فشيئاً، وهذا يعني أن الاستعمار الإنجليزي قد أحدث خطوة إلى الخلف، وشكل حالة من النكوص في فعل التطور الإيجابي، حيث اشتد الجوع، وفقد الإنسان الاتصال بالأرض. فالقرية بدأت تفقد الكثير من تموضعها في أرضها، في حين ظهرت أسماء جديدة متعاونة مع الإنجليز؛ وهذا مما يعني أن المروية المتخيلة تهدف إلى تعرية قيم تاريخية، وتحاول أن توزع أدوار الانحطاط، وتحيلها إلى عدة عوامل، منها ما هو خارجي كالاستعمار، ومنها ما هو داخلي، كتحويل القيم، والحيانة، والنزاعات الداخلية، وتواطؤ القيادات التي كانت تعمل لمصلحتها، فضلاً عن

دور الكنيسة، وبذلك فإن الأسباب تقدم في سياق سردي، في حين تعزز الصورة السلبية للانحدار بأفعال التعذيب والقتل التي كان يقوم بها الضابط الإنجليزي "بترسون" الذي رُسمت شخصيته سردياً بأسلوب شديد العمق والنضج، فالحقيقة التاريخية تتصل بتمثيل قسوة الإنجليزي، وتنكيلهم بأي فلسطيني كان يحمل سلاحاً في ذلك الزمن، وهذا يتوافق مع الكتب التاريخية ذات الطابع التوثيقي العلمي.

يأتي تشييد شخصية "بترسون" ضمن وعي القارئ بوصفه تمثيلاً رمزياً يختزل الوجود الإنجليزي في فلسطين وممارستها بأكملها، فالقارئ لن ينسى شخصية "بترسون" التي تتحول إلى رمز للوجود الإنجليزي، فهذا التكوين المتخيل سيختزل هذا الوجود الإمبراطوري بشخصية واحدة نهضت على بنية تمزج بين المرجعية التاريخية والسحر السردى لشخصية قوية، قاسية القلب متعالية، ومع ذلك فهي تنطوي على روح ما، فهي تعشق الخيل، وتكتب الشعر، كما أنه يقدر الشجاعة والبطولة، وهذا يتضح عندما يلقي التحية على خالد عند استشهاده، أو عندما يجهز على حياة الخيل كي ينهي عذابها، في حين أن نهاية الضابط "بترسون" تتخذ طابعاً شعرياً حيث يموت اغتيالاً، وهذا يعزز بالمقاطع الشعرية التي يكتبها الضابط الإنجليزي التي تعدّ جزءاً من متخيل تاريخي قادر على أن يتمكن من الذاكرة، والوعي القرائي لحكاية ضياع فلسطين.

إن البحث في المصادر التاريخية التي حاولت أن تفسر ذلك الانهيار الذي عكسته الرواية ضمن متخيلها يبدو في بعض مستوياته منسجماً من المروية التاريخية ذات الطابع التفسيري العلمي التي يقدمها على سبيل المثال الخالدي، ومع أن ثمة تطابقاً في بعض المستويات التي تنزع نحو التفسيرات التي تتناولها المرويات التاريخية والشفاهية التي تتفق على أن القوات الإنجليزية قد قدمت دعماً للعصابات الصهيونية، أو أن الجيوش العربية، والثوار الفلسطينيين لم يكونوا مجهزين كما ينبغي بالسلاح، أو التدريب، أو سلبية التعليمات التي كانت ترد من مراكز قيادات الجيوش العربية، فضلاً عن المحاولات الدبلوماسية التي كانت تقودها الأمم المتحدة، غير أن الخالدي ينقل لنا تفسيرات أخرى تتكئ على تحليل معمق لانهيار الذي حصل، وتسبب برحيل الفلسطينيين ومفارقتهم لبيوتهم، وهي تتعلق بمنحى تحليلي للسياقات الثقافية والاقتصادية والتعليمية والاجتماعية للشعب

الفلسطيني بالمقارنة مع اليهود، وهذا يشمل العصابات الصهيونية، وقيادتها، وتنظيم مجتمع المهاجرين اليهود.

يذكر الخالدي أن عدد اليهود كان في تلك الفترة أقل من عدد العرب الفلسطينيين⁽⁴⁹⁾، وهذا ما يمكن أن نعثر عليه أيضاً في كتاب عارف العارف، ولكن الخالدي يضيف قضايا تتعلق بواقع الفلسطينيين "الحضاري"، وتموضعهم الجغرافي في المدن الفلسطينية والقرى، بالتجاور مع تحليل البنية الاقتصادية المسيطرة؛ حيث كان معظم الفلسطينيين يعتمدون على الزراعة، في حين كان اليهود يعملون في الصناعة والخدمات، وبذلك فقد كانوا يتحكمون ببعض المفاصل الأساسية التي سهلت لهم التقدم والسيطرة، فضلاً عن تنظيم صفوفهم؛ حيث كانوا يمتلكون مشروعاً واضحاً، على الرغم من الاختلافات التي كانت تظللهم كونهم من أتوا من بلدان مختلفة، ويتكلمون عدة لغات، ولكنهم كانوا يمتلكون قيادة تعرف ماذا تريد، في حين أن الشعب الفلسطيني بدا أقل تجانساً على مستوى التنظيم والرؤية، وأن قياداتهم كانت منقسمة، وتدين بولاءات مختلفة، أو تعمل لمصالحها الخاصة؛ مما أفقد الشعب عوامل المقاومة كافة، وسهّل من عملية السقوط.

رابعاً- جدل البنية

مع أن إبراهيم نصر الله اعتمد على أسلوب سرد الراوي العليم الكلي، غير أن بنية العمل جاءت متعددة الوظائف، والدلالات؛ حيث نلمح صيغاً ملحمية غير مكتملة، فضلاً عن مأساة مبتورة تتحول إلى ملهارة، وهذا يمكن أن نستخلصه من طبيعة تحليل التركيب الفني للشخصيات السردية، وبالتحديد شخصية "خالد" التي تعدّ مركز التبيير السردية بحيث بدت حاملة لعناصر متداخلة من القيم، منها الفروسية، والرومانسية، مع لمحات من البطولة التي تفوق أفعال البشر في بعض الأحيان، وهذا ما يمكن أن نعثر عليه في إشارات "نورثرب فراي" في تحليله لطبيعة الشخصيات في التشكيل السردية، فعلى سبيل المثال شخصية خالد تتسم بشيء من ملامح بطل المأساة من حيث علاقته بالخيول على سبيل المثال، أو بالغبابة التي تعدّ فضاء للانعزال⁽⁵⁰⁾. إن موته قد مثل نهاية ذات طبيعة

تراجيدية. وهذا يستجيب لتوصيف البطل في الطابع الملحمي، أو المأساوي⁽⁵¹⁾. ولعل هذه الأدوار للشخصية تبدو أقرب إلى مفهوم الاتصال العاملي لغريغاس من حيث نهوض الشخصية بأدوار محددة تستجيب لمبدأ الفاعل والموضوع⁽⁵²⁾.

لعل علاقة خالد مع الخيل، وفعل الاختباء في الغابات والأحراش إبان مقاومته للعثمانيين، ومن ثم الإنجليز يحيل إلى مفهوم "البطل المطارد"⁽⁵³⁾، وهذا قد حقق جزءاً من مواصفات البطل الأسطوري، علاوة على كونه يفعل وظيفة خلق مروية كاملة أو ذات طبيعة متعالية في وعي الفلسطينيين، ومقاومتهم التاريخية للغزاة، بالتجاور مع سعيهم لتقديم الكرامة على أي شيء آخر.

وفي ملمح آخر، يرى "نورثرب فراي" يرى أن الموت، والتحول من حال إلى حال غالباً ما يصحبه إحساس بالحزن، ولا سيما مع مرور الزمن، فالنظام القديم يستسلم للنظام الجديد⁽⁵⁴⁾، وهكذا يرى القارئ فعل أفول الملمح الإيجابي، مع تقدم الإحساس بالانهيار، وغياب زمن البطولة، وهذا يتجلى مع صعود قوة اليهود، والبدء بسيطرتهم على القرية، وباقي فلسطين؛ مما يعني شكلاً من أشكال التحول التاريخي الممهد لتفسير النكبة، ونتائج الفعل التاريخي ولكن ضمن بنية المتخيل، وفي قراءتنا لهذه الوظيفة سنجد أن موت خالد كان قد شكل مرحلة انتهاء زمن الخيول البيضاء التي انتهت استعارياً بمقتلها في الاشتباكات مع الإنجليز، وهذا يعني أن النظام القديم بدأ بالأفول، في حين بدأ النظام الجديد، بيد أن إبراهيم نصر الله لم يرغب في أن يفقد هذا العمل قيمته الواقعية، فجعل الشخصية تقترب في أحد جوانبها من صيغ التمثيل الواقعي؛ بهدف كبح جماح المتخيل، وتقديم السياق التاريخي بهدف تحقيق شيء من الصدق والثبوتية التي يحتاج إليها العمل، فشخصية خالد تعدّ بينية البناء والتكوين؛ إذ تقع بين الشخصية المؤسّرة، والشخصية الواقعية، ولكن ضمن خلفية تاريخية، فلا جرم أن ينزع عنها صفات البطولة المطلقة التي يمكن أن توجد لدى الأبطال الأسطوريين.

تأتي صيغة تموضع البطل في سياق اجتماعي ذي مرجعية واضحة، بالإضافة إلى أهمية سردية تاريخية؛ إذ تسعى إلى تقديم الإطار الثبوتي؛ كون العمل لا يستند إلى

ذوات ، وأفراد فحسب ، إنما هو معني بحقبة زمنية لها وجود ؛ أي إحالة لزمن مرجعي ، وفي هذه الحالة كانت فيها فلسطين بمجتمعها الذي يحمل جميع العناصر التي تجعل منه أمة ؛ ولهذا فإن قراءتنا لجزئيات العمل ربما تقدم لنا صورة أكثر وضوحاً عن وظائف التخيل السردي الذي يقدم شكل الملهاة التي ارتضاها مؤلف العمل ؛ مما يجعلنا نتساءل عن تشكيل هذه الصيغة ، فالملهاة تختلف عن المأساة القابلة للفهم ، في حين أن الثانية لا تنطوي على تفسيرات منطقية ؛ فهي تنتج عن موقف مأسوي ، أو شكل تعسفي من الحدث ؛ فالضحية كانت سيئة الحظ فقط ⁽⁵⁵⁾ ، كما أنها تتصل بسياق جمعي في حين أن المأساة ، فترتكز على الفرد ⁽⁵⁶⁾ . ولعلي هنا أضطر للتسليم بأن إبراهيم نصر الله قد انطلق من الملهاة ليتهاي إلى نتيجة المأساة ، أو على العكس من ذلك ، ولعله أراد أن يمزج بينهما .

يمكن النظر إلى أن أسطورة الشخصية يقع ضمن مجال التخيل ، وفيه تبرز الشخصية ضمن تموضعها في سياق الملحمة من جهة ، والملهاة من جهة أخرى ، وهذا مما يعز السرد البيني المتعدد الوظائف حيث نقرأ :

" تحول خالد إلى حكاية يتناقلها الكبار والصغار حتى ظن البعض أنه حكاية فعلاً ، وإنه لم يوجد من قبل ، لكن الكبار الذين يعرفونه كانوا يرددون حكاياته عن ياسمين ، ويؤكدون حكايته مع الدرك التركي بحيث أصبح جزءاً من خيال الصغار في الهادية " ⁽⁵⁷⁾ .

لعل أسطورة الشخصية الرئيسة قد أتى بعداً يهدف إلى استثمار البعد الروحي ، أو تلك القوى الكامنة في وعي الجمهور ، والقارئ ، ومن ثم الأمة ؛ إذ يرغب نصر الله في خلق تاريخ فلسطيني يميّث في وعي الفلسطينيين بوصفهم أمة قائمة في الزمان والمكان ، وأن وجودهم ممتد وضارب بالجزور في المكنون الروحي الفلسطيني الزمكاني ، وأن هذا التمثيل المرجعي الاستعاري ينقلنا إلى استشارة خطابية ؛ أي أن الرواية تسعى لأن تحقق عدة وظائف مجتمعة ، وكأنها تعمل ضمن مستويات من الإيقاع الدلالي ؛ حيث نقرأ مستويات ربما تتوازي ، وفي بعض الأحيان يتقاطع ؛ حيث يمتزج كل من الأسطوري والرمزي والواقعي والحدث التاريخي في كتلة ملتحمة الأجزاء من التخيل الذي يهضم هذه الأشكال ، ويصهرها ، وفي أحيان يتقاطع بعضها مع بعض ، ومع ذلك يلاحظ أن ثمة نزعة تطغى بحسب الإحداثيات التاريخية ، وهذا يعني تغذية أو تقديم جانب على آخر ، ومن

ثم العودة، وهكذا... ضمن بنية تستهدف تحقيق الغايات الوظيفية من أجل تحقيق هدف أساسي، ونعني تكوين البعد التاريخي الجمعي من خلال الروح التاريخية التي ينبغي لها أن تمتد في الوعي الفلسطيني.

خاتمة

نخلص في نهاية هذه الدراسة إلى أن رواية زمن الخيول البيضاء تنظر إلى التاريخ وأحداثه المتصلة بفعل النكبة من منظور محاولة تمكين هذا الحدث في الوعي الفلسطيني الجمعي، وهي في ذلك شأنها شأن الرواية الفلسطينية التي تستدعي هذا الحدث بهدف محاولة تثبيته، ومقاومة محوه من الذاكرة الفلسطينية، بالتجاور مع مقاومة المروية الصهيونية. ومن هنا فقد تميزت رواية "زمن الخيول البيضاء" بوظيفتين أساسيتين: الأولى تمثل بمحاولة استلهام التاريخ، وتوظيفه تخيلاً؛ حيث سعت إلى تخليق رؤية تاريخية لزمان سابق على فعل النكبة بهدف ابتناء وعي وجودي؛ من خلال شخصيات عاصرت النكبة، وما قبلها، غير أن العلاقة والمسارات التاريخية تسببت في انحراف هذا الوعي من خلال مسلك بعض الشخصيات نتيجة ظرف تاريخي. الثانية محاولة النظر إلى التاريخ في إطار جدلي ينهض على الحدث التاريخي باتصاله مع الوعيين الفني والجمالي من أجل تمكين الامتداد الفلسطيني انطلاقاً من قبل النكبة إلى ما بعدها؛ ولهذا نجد بنية متداخلة المستويات حيث تجمع بين الملهاة، والمأساة، والأسطورة، كما الواقع؛ إذ تتنوب هذه التشكيلات في مجال سردي واحد.

الهوامش والمراجع

- (1) Khalidi ، Rashid : The Iron Cag – The story of the Palestinian struggle to statehood ، Oxford : Oneworld Publications ، 2007 ، P . XXIX .
- (2) لوكاش، جورج: الرواية التاريخية، ترجمة: صالح جواد كاظم، بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، 1986، ص 7.
- (3) Ashcroft ، Bill : Transformation ، London : Routledge ، 2001 ، PP . 19-21 .
- (4) بلاوت، جي . إم: نموذج المستعمر للعالم الانتشار الجغرافي وتاريخ المركزية الأوروبية، ترجمة: هبة الشاب، القاهرة: المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010، ص 22.
- (5) المسيري، عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مج 6، ط1، القاهرة: دار الشروق،

- 1999، ص 20-21.
- (6) كوثراني، وجيه: تاريخ التأريخ اتجاهات-مدارس-مناهج، ط ٢، الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013، ص 24.
- (7) هيجل، فريدريك: العقل في التاريخ، ترجمة: إمام عبد الفتاح، مج 1، ط 3، بيروت: دار التنوير، 2007، ص 67-68.
- (8) العقل في التاريخ، ص 69-70
- (9) العقل في التاريخ، ص 75-72.
- (10) العقل في التاريخ، ص 77.
- (11) العقل في التاريخ، ص 43.
- (12) <https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/spirit> (22/2/2018)
- (13) غيرتز، كليفوردي: تأويل الثقافات، ترجمة: محمد بدوي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009، ص 290.
- (14) Baldick, Chris: The Concise Oxford Dictionary of literary terms, New York: UP, 2001, P.114.
- (15) الرواية التاريخية، ص 46.
- (16) الرواية التاريخية، ص 28.
- (17) ريكور، بول: الزمان والسرد- الحكمة والسرد التاريخي، ترجمة: سعد الغانمي وفلاح رحيم، بيروت: دار الكتاب الجديدة، 2006، ص 276.
- (18) إبراهيم، عبد الله: التخيل التاريخي السرد، والإمبراطورية، والتجربة الاستعمارية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2011، ص 7.
- (19) الرواية التاريخية، ص 17.
- (20) الرواية التاريخية، ص 18-19
- (21) الرواية التاريخية، ص 25.
- (22) الرواية التاريخية، ص 46.
- (23) الرواية التاريخية، ص 46.
- (24) في عدد من أعمال غسان كنفاني ثمة سرد تقييمي لمسارات الحدث الفلسطيني؛ حيث نقرأ إدانة الخروج الفلسطيني كما في رواية رجال في الشمس، أو الإعلاء من معنى المقاومة والالتزام كما في روايتي " أم سعد" و "عائد إلى حيفا"، وغير ذلك من الأعمال التي تتخذ طبيعة المحاكمة للفعل الفلسطيني ضمن بنية التاريخ. لتعرف هذا المسار انظر كنفاني، غسان: الآثار الكاملة، مج 1، بيروت: دار الطليعة، 1972.
- (25) تحليل الروايات التي تعرضت لسردية النكبة في أبو شهاب، رامي: في الممر الأخير سردية الشتات الفلسطيني- منظور ما بعد كولونيالي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2017.
- Masalha, Nur: The Palestine Nakba decolonising history narrating the subaltern

- (26) reclaiming memory, London: Zed books, 2012, P. 206.
- (27) يقصد ريكور بالقصدية التاريخية التعقل الخالص ؛ بمعنى عدم تلاشي الطبيعة التاريخية للتاريخ عبر منعها من الذوبان في أنواع معارف، أو ممارسات أخرى كالفنون أو السرد. انظر الزمان والسرد، ص 282.
- (28) الزمان والسرد، ص 276.
- (29) الزمان والسرد، ص 279.
- (30) يرى هيجل أن الأسرة تعد المكون الأساسي للمجتمع، والدولة، ومن هنا يلاحظ أن رواية إبراهيم نصرالله تنهض على تعميق التضامن الأسري كما تجلّى في عائلة "خالد" التي شهدت فعلاً تعاقباً للأجيال بدءاً من الجذ انتهاء بالخفيد. لتعرف دور الأسرة في البيئة المجتمعية انظر:
- Duquette, David A: Hegel- Social and Political Thought, Internet Encyclopaedia of philosophy: <http://www.iep.utm.edu/hegelsoc/#SSH6c.i> (23/3/2018)
- (31) فراي، نورثرب: تشريح النقد ومحاولات أربع، ترجمة: محمد عصفور، عمان: منشورات الجامعة الأردنية، 1991.
- (32) يحدد الخالدي عدد الفلسطينيين الذين فقدوا أملاكهم، وثوراتهم في القدس الغربية بنحو (٣٠) ألف مواطن مقدسي. انظر: The Iron Cage, P.2.
- (33) تسعى رضوى عاشور في روايتها إلى كتابة مروية مضادة عبر تأكيد المجزرة التي ارتكبتها العصابات الصهيونية في قرية الطنطورة، فتصور القتل والتدمير الذي شمل القرية من خلال حكاية رقية التي تفقد عائلتها، ومن ذلك نقراً: " ذراع أمي وأنا أشير بيدي إلى كومة من الجثث. نظرت أمي إلى حيث أشير وصرخت جميل، جميل ابن خالي! ولكنني عدت أجذب ذراعها بيدي اليسرى وأشير بيدي اليمنى إلى حيث أبي وأخويّ كانت جثتهم بجوار جثة جميل ". انظر عاشور، رضوى: الطنطورة، القاهرة: دار الشروق، 2010، ص 62.
- (34) يسعى إلياس خوري في رواية "اسمي آدم" إلى تصوير ممارسات الإسرائيليين في مدينة اللد، وكيف تحولت إلى سجن كبير، فضلاً عن التنكيل والقتل، وهو مما يعد محاولة لتأصيل واقعة الحدث التاريخي، وتبنيته، ولكن ضمن حبكة تستند إلى قيم جديدة تضيف على العمل سمة التشكيل للوعي التاريخي ضمن بنية متخيلة. ومن ذلك نقراً: " أعرف أنني لا أمتلك وثائق تثبت كلامي، وثنائي هي شهادات الناس الذين مات أغلبهم، وأخشى أن يأتيني غداً مؤرخ كالدكتور حنا جريس بخطابه العلمي، الذي يقول إننا حين لا نستطيع البرهنة على كلامنا فلا جدوى من كتابته، أو يأتي مؤرخ وكاتب إسرائيلي مثل توم سيغيف بحجته الدامغة بأن كبير المؤرخين الإسرائيليين بني موريس لم يذكر بعض هذه الوقائع في كتابه عن مشكلة اللاجئين ". انظر خوري، إلياس: أولاد الغيتو اسمي آدم، بيروت: دار الآداب، 2016، ص 350.
- (35) نصر الله، إبراهيم: زمن الخيول البيضاء، ط6، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2012، ص 136.
- (36) زمن الخيول البيضاء، ص 269.
- (37) زمن الخيول البيضاء، ص 269.

- The Iron Cag, P. P. 9-22. (38)
- أثشيبي، تشنوا: الأشياء تتداعى، ترجمة: سمير عزت نصار، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2002. (39)
- العارف، عارف: النكبة والفردوس المفقود، ج1، كفر قرع: دار الهدى، 1956، ص16. (40)
- زمن الخيول البيضاء، ص22. وانظر أيضاً ص33. (41)
- زمن الخيول البيضاء، ص33. (42)
- زمن الخيول البيضاء، ص500. (43)
- زمن الخيول البيضاء، ص504. (44)
- زمن الخيول البيضاء، ص259. (45)
- زمن الخيول البيضاء، ص256. (46)
- زمن الخيول البيضاء، ص270. (47)
- زمن الخيول البيضاء، ص240. (48)
- يذكر الخالدي أن عدد اليهود حتى عام 1948 نحو (600000)، في حين كان عدد الفلسطينيين (مليوناً و400 ألف)، وكانوا يملكون نحو 90% من أرض فلسطين. انظر: The Iron Cag, P. 1. (49)
- تشريح النقد، ص44. (50)
- تشريح النقد، ص44. (51)
- مفهوم العامل لدى غريماس في زيتوني، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 2002، ص123. (52)
- تشريح النقد، ص231. (53)
- تشريح النقد، ص45. (54)
- تشريح النقد، ص51. (55)
- تشريح النقد، ص266. (56)
- زمن الخيول البيضاء، ص147. (57)

المراجع بالحروف اللاتينية

References in Roman Script

- (1) 'ibrāhīm naṣr Allah, zamn alḳayūl albaydā', ṭa6, bayrūt, addār al'arbya lal'lūm nāšrūn, 2012.
- (2) 'ilyās ḳawrī, 'awlād alḡaytū asmī 'ādm, bayrūt, dār al'ādāb, 2016.
- (3) bawl raykūr, azzamān wassard- alḥabka wassard attārīḳī, tarjma sa'd alḡānmī wafīlāḥ raḥīm, bayrūt, dār alkatāb aljadīda, 2006.
- (4) jawrj lawkāš, arrawāya attārīḳya, tarjma ṣālḥ jawād kāḍm, baḡdād, wazāra attaqāfa

wāli'īlām, 1986.

- (5) jay. 'im. balāwt, namūdj almas'tmr lal'ālm, alānchār aljaǧrāfī watārīk almarkzya al'awrūbya, tarjma haba aššāb, alqāhra, almarkz alqawmī laltrjma, alqāhra, 2010.
- (6) rāmī 'abū šahāb, fī almamr al'aqīr sardya aššatāt alfalsīnī- manǧūr mā ba'd kawlūnyālī, bayrūt, almāssa al'arbya laldrāsāt wannašr, 2017.
- (7) raǧū 'āšūr, aṭṭanṭūrya, alqāhra, dār aššarūq, 2010.
- (8) 'ārf al'ārf, annakba walfardūs almafqūd, ja, dār alhadā.
- (9) 'abd Allah 'ibrāhīm, attaqīl attārīkī: assard, wāli'imbrāṭūrya, wattajrba alāst'mārya, bayrūt, almāssa al'arbya laldrāsāt wannašr, 2011.
- (10) kalīfūrd ǧayrtz, tāwīl atṭaqāfāt, tarjma maḥmd badwī, bayrūt, almanǧma al'arbya laltrjma, 2009.
- (11) laṭīf zaytūnī, ma'jm mašṭlḥāt naqd arrawāya, bayrūt, maktba labnān nāšrūn, 2002.
- (12) nawrīb farāy, tašrīḥ annaqd maḥāwlāt 'arb', tarjma maḥmd 'ašfūr, 'amān, manšūrāt aljām'a al'ardnya, 1991.
- (13) hayjl, al'aql fī attārīk, tarjma 'imām 'abd alfatāḥ, ṭa3, bayrūt, dār attanwīr, 2007.
- (14) wajīh kawṭrānī, tārīk attārīk atjāhāt-madārs- manāhj, ṭar, almarkz al'arbī lalābhāt wadrāsa assayāsāt, 2010.

المجلة العربية للعلوم الإدارية



Arab Journal of Administrative Sciences

رئيس التحرير: د. علي راشد المطيري

- صدر العدد الأول في نوفمبر ١٩٩٣ .
- First issue, November 1993.
- علمية محكمة تعنى بنشر البحوث الأصيلة في مجال العلوم الإدارية.
- Refereed journal publishing original research in Administrative Sciences.
- تصدر عن مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت ثلاثة إصدارات سنوياً (يناير - مايو - سبتمبر).
- Published by Academic Publication Council, Kuwait University, 3 issues a year (January, May, September).
- تسهم في تطوير الفكر الإداري واختبار الممارسات الإدارية وإثرائها.
- Contributes to developing and enriching administrative thinking and practices.
- مسجلة في قواعد البيانات العالمية.
- Listed in several international databases.
- تخضع للتقييم الأكاديمي الخارجي.
- Reviewed periodically by international referees for high academic standards.

الاشتراكات

الكويت، 3 دنائير للأفراد - 15 ديناراً للمؤسسات - الدول العربية؛ 4 دنائير للأفراد - 15 ديناراً للمؤسسات
الدول الأجنبية؛ 15 دولاراً للأفراد - 60 دولاراً للمؤسسات

توجه المراسلات إلى رئيس التحرير على العنوان الآتي:

المجلة العربية للعلوم الإدارية - جامعة الكويت ص.ب. 28558 الصفاة 13146 - دولة الكويت
هاتف: (965)24827317 - أو 4734 / 4416 / (965)24984415 - فاكس: (965)24817028
E-mail: ajas@ku.edu.kw - Web Site: <http://www.pubcouncil.kuniv.edu.kw/ajas>